دعامتان قويتان

لإصلاح حال الفلاح الصغير

للدكتور محمد أبو طائلة

أجريت تجارب كثيرة لإصلاح حال الفلاح الصغير ، والارتفاع بمستوى معيشته ، سواء فى ميدان التعليم ، أو الصحة ، أو الزراعة أو الاقتصاد . وقد خرج ولاة الأمور من تلك التجارب بنتيجتين جعلتهما إدارة الفلاح المنشأة حديثا دعامتين أساسيتين لكل إصلاح تبتغيه لأحوال الفلاح الصغير : (الأولى) أن وجوه الإصلاح المختلفة يجب أن تتم فى وقت واحد (والثانية) أن الفلاح يجب أن يؤمن بضرورة الإصلاح وفائدته ، ويساهم فيه بالنصيب الأوفى ، وعلى الحكومة الإرشاد والتوجيه والمعونة المالية .

ولقد جرب التعليم وحده زمنا ما ، ونشرت المدارس الإلزامية فى القرى والكفور ، ولكن ما فائدة تهذيب النفوس وحشو الرءوس ، اذا كانت المعدة خاوية وكان الجسم ضعيفا مريضا وهل يقبل الجائع على الدرس ويلتذ المريض بالعرفان ؟ وهل ليس الرغيف فى هذه الحالة أثمن من الكتاب ، والدواء أجدى من الحساب ، والكساء أنفع من جاء زيد وضرب بكر ،

كذلك جربت الصحة بوجهتيها : الوقاية والعلاج ، فردمت برك ومستنقعات ، وحوربت الملاريا وكوفحت البلهارسيا والانكلوستوما ، ونشرت بين الفلاحين ارشادات صحية سمعوا فيها حتا على النظافة وحضا على مجانبة أسباب المرض ، وأقيمت مستشفيات ومراكز لرعاية الطفل ، وجىء بالأطباء للعلاج ، وصرفت الأدوية بالمجان أو بأجر زهيد . ولكن الفلاح ظل رغم كل ذلك عليلا هزيلا ، كلما دعى الى الاستمساك بأسباب الصحة ووسائل النظافة ، حال فقره دون ذلك ، وكلما وصف له العلاج الناجع ، ردّه جهله الى العادات البالية ووضعه بين براثن المرض .

ثم جربت الزراعة والاقتصاد ، من إرشاد زراعى وتعاون بين الزراع ، فألقيت على الفلاحين محاضرات ، ووزعت نشرات ومجلات . وأسست بينهم جمعيات بعد جمعيات ، ولكنهم بجهلهم لم يدركوا كنه الإرشاد ولم يدروا حقيقة التعاون ، وانقرضوا لم يستطيعوا حسن اختيار البذور ولم يشتركوا فى الجمعيات التعاونية .

وهكذا تجد الدائرة مفرغة الحلقات ، اذا جئت الفلاح من ناحية العلم صدك عنه المرض والفقر ، واذا غمزته من جانب الصحة ردك الفقر والجهل ، واذا لمسته من ناحية الزرع والنفع ذهب الجهل بكل فائدة ترجى .

ولقد تسمع بعض الدعاة المصلحين ينادون بأعلى أصواتهم قائلين إن الفقر وحده أصل البلوى وسبب الشقوة ، فاذا كوخ زالت معه الجهالة وولت الأدواء بفعل ساحر . فلنجار هؤلاء الدعاة فى دعوتهم ، فليس أشق على نفوسنا من أن نرى الفقر فاشيا بين صغار الزراع ، وليس أحلى على أسماعنا من رنين الذهب ينثر على رءوسهم ثرا ، ولكن ماقول اولئك الدعاة فى الفلاح عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٠ حين ارتفعت أسعار القطن والحاصلات الأخرى اضعافا مضاعفة فامتلأ جيبه وعمر بيته وكثر خيره ؟ أتراه يومئذ قد ارتقى صحة وارتقى علما وثقافة ، أم عجز الرخاء وحده عن تحسين الصحة وتثقيف العقل . وبقى الفلاح مريضا رغم رغده ، جاهلا رغم يسره ؟ بلى وقد أودى الجهل فى النهاية بكل ما كسب من مال ، فبدده فى أيام معدودات ولم يدخر منه مايعينه على السنوات العجاف التى تلت وقت العز والهناءة .

الحق أن وجوه الإصلاح الثلاثة لازمة معا ، ولا غنى لأحدها عن الآخرين . فعلاج الفقر لا يكفى وحده ولا بد معه من العلم والصحة . والحال كذلك مع الصحة اذا عولجت وحدها ومع العلم اذا نشر وحده .

وإنما يرتقى الفلاح و يرتفع مستوى معيشته اذا زاد دخله ، وعولج مرضه ، وثقف عقله فى آن واحد ، فإن هذه الثلاثة متوازنة يعاون كل منها الاثنين الباقيين ، فالرغد يساعد على حفظ الصحة واستيعاب المعرفة ، والصحة تعاون على زيادة الدخل وفهم الحقائق ، والعلم يعمر بوسائل الكسب والاحتفاظ بالصحة .

وعلى هذا الأساس تعمل ادارة الفلاح فى سعيها لإصلاح حال الفلاح ؛ وعلى هذه العمد الثلاثة نبت مشروع (المراكز الاجتماعية) الذى لم يئن الأوان بعد لشرح مراميه وتفصيل غاياته .

أما القاعدة الثانية التى يقوم عليها الإصلاح فهى إشراك الفلاحين أنفسهم فيه ، ويتخذ ذلك خطوات وأشكالا متتالية :

(أولا) إقناع الفلاحين بضرورة الإصلاح ونفعه .

(ثانيا) إشراكهم فى إنفاذ الإصلاح قدر إمكانهم ومعاونتهم عليه بكل وسيلة .

(ثالثا) جعلهم يحرصون على الاستفادة من مشروعات الإصلاح وصونها من الزوال .

ولقد بوشرت إصلاحات حكومية كثيرة لفائدة الفلاحين ، ولكنهم بقوا عنها بمعزل لأنهم لم يؤمنوا بداءة بضرورتها ونفعها ، ولم يساهموا فى إقامتها تبعا لذلك الإيمان ، ثم لم يقبلوا عليها كل الإقبال المرجو ، ولقد قضت ظروف الفلاحين منذ عهد المماليك ثم منذ الفتح العثمانى بأن يرتابوا فى كثير مما يحيثهم عن طريق الحكومة ، ولم يعلم أكثرهم ان العهد قد تغير من زمان بعيد ، فصارت الحكومة لا تنشد غير نفعهم وصالحهم . ولن يزول ذلك الوهم من أذهانهم الا بإرشادهم وتوجيههم حتى يقوموا بالإصلاح المنشود بأنفسهم ويروا الحكومة تعاونهم على إتمامه بالمال والرجال .

أما قيام الحكومة وحدها بالإصلاح فانه مهما تكبر فائدته غير مضمون الثمرة ، ولا مكفول البقاء . وهل أتاك حديث برك ردمت ثم أعيدت بركا كما كانت ، وصهاريج لماء الشرب العذب أقيمت ، فلم يكد ينتفع منها أحد ، ومراحيض صحية شيدت فتركها الفلاحون الى شواطئ الترع كما اعتادوا ؟

إنما يتم الإصلاح على الوجه الأكمل حين يؤمن به الفلاحون ويقومون به بأنفسهم ثم يقبلون على الاستفادة منه وصيانته .

والإصلاح فى هذه الحالة لا يكلف الا جزءا قليلا مما يكلفه لو قامت به الحكومة وحدها ودون اشتراك الأهالى فيه .

وخير ما يكون ذلك الاشتراك عن طريق الجمعيات التعاونية التى تجمع بين الفلاح الصغير والفلاح الكبير ، وتوحد بين مصلحة الأفراد ومصلحة المجموع ، وتشمل الخدمات المادية والاجتماعية معا ، والتى تمثل جهود الشعب الى جانب جهود الحكومة ، والشعب اذا أراد فعل ، واذا آمن أقدم ، واذا أقدم فلن يصده شىء عن سبيله .

محمد أبو طائلة